كتاب (روضة الفصاحة) للثعالبي ليس للثعالبي

□ الدكتور خالد فهمي - مصر

كل جامع عرضة للاستدراك عليه. هذه الكلمة صادقة إلى أبعد الحدود، ولا سيما في مجال التعامل مع التراث العربي الإسلامي، ذلك التراث الذي امتد عمره قروناً طويلة لأن أراضيه مترامية الأطراف، شاسعة المساحات، ولأن كنوزاً من عيونه لما ينفض عنها تراب التخزين في المكتبات، والمساجد، والدور والأقبية وصدق من قال :كم في الزوايا من خبايا.

هذا كله وغيره من المبررات والأسباب هي التي تجعل الإنسان العامل في مجال الدراسات العربية، وتحقيق النصوص ونشرها بوجه خاص- لاينزعج عندما يرى كتاباً جديداً يظهر منسوباً إلى علم من الأعلام في حضارتنا، ويعود إلى نفسه فيقول: وفوق كل ذي علم عليم، ويطير- في الغالب- فرحاً بما خرج للنور.

كان هذا شعوري عندما وقعت عيناي على هذا الكتا ب "روضة الفصاحة" لأبي منصور الثعالبي، فتناولته مسروراً، لأنني انشغلت زماناً بأبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ، منذ شرعت أعرف طريق الدراسات العليا، وكنت صنعت قائمة لمؤلفاته، وهي أغنى وأشمل ما صنع له من قوائم بفضل الله عزوجل. وكان أول شعور ملكني هو ما أخبرتك عنه الآن من سعادة، يشوبها شيء من الأسى ، لأن قائمتي خلت من ذكر "روضة الفصاحة" هذا.

وقد جاء على صفحة غلافه حققه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم، ونشرته مكتبة القرآن بالقاهرة سنة ١٩٩٤م.

وفي بداية الأمر قمت إلى الأساتذة الذين سبقوا فصنعوا قوائم لمؤلفات الثعالبي، لعل أحدهم أو بعضهم يكون قد ذكر هذا الكتاب ، وفاتني إحصاؤه ، لا سيما إن

تخطئة النفس واتهامها مبدأ مقرر في هذا المقام قبل اتهام الآخرين، فعدت إلى قوائم صنعها أساتذة محققون سبق لهم أن نشروا بعضاً من كتب الثعالبي، من أمثال المرحوم الدكتور عبد الفتاح الحلو، والمرحوم الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم، والمرحوم الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، والأساتذة هلال ناجي، وإبراهيم الأبياري، والدكتور زهير زاهد، والدكتور مجاهد مصطفى بهجت والدكتور جليل عطية والدكتورة ابتسام مرهون الصفار والدكتور محمد التونجي، وشاكر عاشور والدكتور محمود الجادر والدكتور النبوي شعلان وأسامة البحيري، فضلاً عن القائمة التي صنعتها لمؤلفاته - فلم أجد في قوائمهم ذكراً لكتاب بهذا العنوان، فكان هذا أول الخيط يقودني للشك في نسبة هذا الكتاب إلى أبي منصور الثعالبي، فقلت: لعل النقد الداخلي أي فحص مادة الكتاب وتحليلها يحسم أمر هذا الخلاف، ويقضي لي أو لمحققه فينصفني منه، أو يحكم له عليّ.

وشرعت في قراءة قراءة الكتاب، منتبهاً إلى مادته ومصادره فكان العجب الذي لا يزول، مما يؤكد نفي نسبة الكتاب إلى الثعالبي نفياً مؤكداً، قائماً على أدلة كثيرة ومتنوعة. وتتلخص هذه الأدلة في النقاط التالية نعرضها موجزة، ثم نفصل القول في كل نقطة على حدة:

١- مصادر الكتاب تنتمي في أغلبها لدرجة تصل إلى تسعين بالمائة، إلى زمان متأخر بعد وفاة الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ.

٢- في كتاب "روضة الفصاحة" إحالات إلى كتب لم تذكر للثعالبي.

٣- استشهاد صاحب الكتاب بشعر ليس في طبعتي ديوان الثعالبي، سواء في تلك الطبعة التي قام على جمعها الدكتور عبد الفتاح الحلو، أو تلك التي جمعها الدكتور محمود الجادر، على فرق ما بين الجمعين من زيادات للأخيرة.

٤- بعض الحواشي التي كتبها السيد الذي زعم أنه حقق الكتاب تؤيد رأينا في نسف نسبة الكتاب إلى الثعالبي.

٥- إهداء مؤلف الكتاب يؤكد ما ذهبنا إليه.

وإليك بيان ذلك على وجه من البسط والتفصيل:

أولاً: مصادر الكتاب:

اعتمد صاحب روضة الفصاحة على عدد غير قليل من النقول والاستشهادات لمؤلفين وشعراء، شارحاً أو مفسراً أو مدللاً على ما يتناوله من قضايا بلاغية أو لغوية من أمثال الجوهري (ت ٣٩٣هـ) صاحب معجم الصحاح، وهو كما ترى متوفى قبل وفاة الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، وليت كل مصادره كانت هكذا، ولو كانت لخطت خطوة

نحو نسبته إلى الثعالبي، لكن بقية مصادر الكتاب ولد أغلب مؤلفيها بعد وفاة الثعالبي مما يستحيل معه أن يورد الثعالبي أقوالاً لهم، أو أشعار على فرض صحة نسبة الكتاب إليه من هؤلاء:

أ- الأرجاني: وقد أورد له شعراً في (ص٢٨و٥٢و٥٥ ومواضع أخرى كثيرة وهو أبو بكر أحمد بن محمد الحسن الأرجاني، ولد سنة ٤٦٠هـ وتوفي ٥٤٤هـ! . وأنت ترى أنه يستحيل أن يذكر له الثعالبي شعراً في أحد كتبه لأنه توفي قبله باحدى وثلاثين سنة.

ب- أسامة بن منقذ: (ذكر في روضة الفصاحة ص١١٤ وغيرها) وهو مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الكتاني الشيزري نسبة إلى قلع شيزر الواقعة على نهر العاصي بالشام. ولد سنة ٤٨٨هـ -وتوفي سنة ٥٨٤هـ، أي أنه ولد بعد الثعالبي ما يقارب من ستين عاماً، فكيف -إن أصبحت روضة الفصاحة للثعالبي- أن يروي عنه أو يورد له شعراً أو رأياً.

ج- الحريري: (كثر ذكره في روضة الفصاحة كثرة مفرطة بحيث لم تخل صفحة من ذكره. انظر على سبيل المثال ص٣١، ٤٩، ٥٩، ٦٧، ٧٠، ٧٣، ٧٩، ٨٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩...وسر هذه النقول الكثيرة عن الحريري والغالب عليها أن من مقاماته الشهيرة هو أن مؤلف الكتاب الحقيقي كما سترى في نهاية المقال له شرح مفصل على هذه المقامات).

والحريري هو محمد أبو القاسم بن علي، ولقبه من نسبته إلى صناعة الحرير وبيعه ولد بالقرب من البصرة سنة ٤٤٦هـ، وتوفي سنة ٥١٦هـ. وأنت ترى أن ولادته كانت بعد وفاة الثعالبي بعقد كامل ونصف عقد، مما يقضي باستحالة أن يكون الذي نقل عنه في روضة الفصاحة هو أبو منصور الثعالبي.

د- الزمخشري (ورد ذكره في روضة الفصاحة ص٥٠ ومواقع أخرى)، وهوأبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد أو محمد يلقب بجار الله لمجاورته البيت الحرام بمكة المكرمة، زادها الله مهابة وتشريفاً، ولد بإحدى قرى خوارزم سنة ٤٦٧هـ وتوفي ٥٣٨هـ، وأنت ترى الفارق ما بين وفاة الثعالبي وميلاد الزمخشري، وإن هذا الفارق الذي ربا على خمس وثلاثين سنة ، ممايقضي بإستحالة أن يكون مؤلف روضة الفصاحة هو الثعالبي كما نشره السيد المحقق.

هـ- ابن الفارض (ورد له شعر في روضة الفصاحة ص٦٣ وغيرها) وهو شرف الدين عمر بن علي، أبو حفص الحموي المصري، ولد سنة ٥٧٦هـ وتوفي

٦٣٢هـ وكان من كبار الصوفية الشعراء. ولو أن السيد المحقق عنى نفسه وترجمه لتوقف، ولم ينسب الكتاب إلى الثعالبي المتوفّى سنة ٤٢٩هـ، أي قبل مولده بمائة وخمسين عاماً تقريباً!.

و- المطرزي (ورد ذكره في روضة الفصاحة ص٨٩،٩٢،٩٤،٩٦،وتقل عنه صاحب الكتاب واعتمد شرحه لمقامات الحريري في كثير من النقول التي نقلها عنه)، وهو أبو الفتح ناصر بن عبد السيد أبو المكارم بن علي المطرزي الخوارزمي الحنفي الجرجاني، كان يعرف بخليفة الزمخشري، ولد سنة ٥٣٦هـ؟ وتوفي سنة ٦١٠هـ، وهو مولود كما ترى بعد وفاة الثعالبي الذي نسب إليه روضة الفصاحة بما يزيد عن مائة عام.

ز- ابن النبيه (ورد له شعر في روضة الفصاحة ص٦٠ وغيرها) وهو كمال الدين علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن يحيى المعروف بابن النبيه المصري الأيوبي توفي سنة ٦١٩هـ، وهو كالأعلام السابقة يستحيل لقاؤه بالثعالبي.

وهناك أسماء اخرى غير هذه كثيرة استشهد بها صاحب روضة الفصاحة، وقد ولدت بعد وفاة الثعالبي من أمثال ابن رشيد الدين والأبيوري وغيرهما!.

ثانياً: كتب أخرى ليست للثعالبي:

في أكثر من موضع أحال مؤلف الكتاب الحقيقي على كتاب عنوانه "دوحة الأدب" ولم يذكر واحد ممن ترجموا الثعالبي، وصنعوا قوائم لمؤلفاته كتاباً له بهذا العنوان، يقول في روضة الفصاحة ص٢٨. والقاضي الأرجاني (٤٦٠-٥٤٤هـ) زاد على جميع المتأخرين وأكثر المتقدمين في اختراع التشبيهات العقلية، ومن تصفح ديوانه علم صحة ذلك. وقد أوردت أحسن ما له في كتابي المسمى بـ"دوحة الأدب". وعلى الرغم من أن الإحالة خاصة بشعر الأرجاني المولود بعد وفاة الثعالبي بثلاثين سنة تقريباً، فإن السيد المحقق بحشر على هذا الكلام فيقول: (هـ٢ص٢٨) "أرجو أن يعينني الله على تحقيقه وتقديمه لمحبي الثعالبي! فأي غفلة هذه!.

ثالثاً: شعر مؤلف الكتاب:

أورد صاحب روضة الفصاحة كثيراً من شعره هو، ولم يرد هذا الشعر في طبعتي ديوان الثعالبي اللتين نشرهما الدكتور عبد الفتاح الحلو رحمه الله، والدكتور محمود الجادر، مع ما في الأخير من استدراكات على الأول.

يقول صاحب روضة الفصاحة ص٣٠ ((وقولي: - من الطويل -

هو النجم إلا انه غير آفل يضيء إذا ما غابت الأنجم الزهرُ))

وفي روضة الفصاحة ص١١١ ((قولي من أبيات: – من الكامل –

فيمينـــه يمـــنٌ لقـــاصد جـــوده وبلـــوغ بحـــج واليســـار يســـارُ

وفي روضة الفصاحة ص١١٢ ((قولي من الأبيات: – من الخفيف –

لـم تـزل فـي اقتنـاء حمـدٍ ومـدح وثنـــاء حتـــى سـمـوت ســـمواً))

وفي روضة الفصاحة ص١١٢، ((قولي من أبيات: – من الطويل –

يساقط زهـراً مـن حديـث مصـدّق ينوب عـن الريحـان والماء والـراح))

(وقد ضبط السيد المحقق السين من: يساقط بالتشديد وهو ضبط يكسر الوزن).

وغير هذا كثير من الشعر الذي نسبه صاحب الروضة لنفسه كما في ص١٣٨،١٤٤ وغيرهما وليس شيء من هذه الأشعار في طبعتي الديوان للدكتور الحلو والدكتور الجادر.

(انظر شعر الثعالبي بمجلة المورد العدد ١ من المجلد ٦ سنة ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م، للكتور الحلو وديوان الثعالبي، تحقيق الدكتور محمد الجـادر، طبعـة وزارة الثقافـة والإعلام العراقية بغداد ١٩٩٠م)

رابعاً: حواشي المحقق نفسه تؤكد أن روضة الفصاحة ليست للثعالبي:

من أعجب العجب أن السيد محقق الكتاب عند ورود شعر للقاضي الأرجـاني ص٢٨ يترجم له الحاشية فيقول: "هذا هو أبـو بكـر أحمـد بـن محمـد بـن الحسـن الأرجاني نسبة إلى أرجان من بلاد خوزستان، وهو عربي الأصل ولدسنة ٤٦٠هـ. كان فقيهاً تولى القضاء في خوزستان وعسكرمكرم وتستر. وتوفي بتستر سنة ٥٤٤هـ". ! ولا أدري كيف غفل هذه الغفلة الفاحشة ولم يدر أن الثعالبي يستحيل أن يؤلـف روضة الفصاحة ويورد فيها شعر الشاعر الذي ولد بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة. وقد سبق أن ترجم للثعالبي وعرف أنه مات سنة٤٢٩هـ ، ولله في خلقه شؤون.

خامساً: إهداء الكتاب:

يقول صاحب روضة الفصاحة في المقدمة ص١٥ "أحببت أن أضع فيه (في علم البلاغة) مختصراً يسمى بروضة الفصاحة جامعاً بين الإيجاز المعجز والإعجاز الموجز.

لم يوضع مثله في شرف نثره ونظمه على صغر قدره وحجمه. وأشرفه باسم مولانا السلطان العالم العادل المجاهد... سلطان الإسلام والمسلمين: أبي غازي بن أرتق أرسلان بن أرتق ظهير أمير المؤمنين".

وترجمة الرجل تقول: إنه توفي سنة ٦٥٨هـ وهو تاريخ يقضي باستحالة ان يكون الثعالبي هو مؤلف روضة الفصاحة.

كل هذه القرائن حاكمة تؤكد نسبة الكتاب إلى الثعالبي كما زعم السيد المحقق.

كل هذا بالإضافة إلى وجود قرائن أخرى من مثل:

أولاً: كتب التراجم والطبقات والكتب تنسب روضة الفصاحة لزين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد المحسن الرازي المتوفى فيما يقرب من سنة ٦٦٦هـ وهو صاحب مختار الصحاح كما ورد في بروكلمان ٣٦٣/٦ وكشف الظنون.

ثانياً: زعم المحقق أن السيوطي نقل عن روضة الفصاحة في كتابه جنى الجناس، يقول السيد المحقق ص١١"ولقد اقتبس الإمام السيوطي في كتابه جنى الجناس فقرات من روضة الفصاحة للثعالبي وأشار إلى ذلك" وهذا كذب على الرجل، إذ لم يذكر روضة الفصاحة في جنى الجناس الذي نشره المرحوم الدكتور علي رزق الخفاجي إلا في ثلاثة مواضع هي بالترتيب ص٦/٢٧٥، ٣/٢٨٠، ٧/٢٨٩ ولم ينسه في أي مرة ينقل فيها منه، بل يكتفي بقول: صاحب الروضة الفصاحة، مع أنه ذكر الثعالبي في أحيان كثيرة من مثل ذكره في ص١٦٣،١٨٠،١٨٣،١٨٧،١٩٨ وغيرها. والدكتور الخفاجي نفسه ينسب الكتاب إلى زين الدين الرازي في ص٢٨٠.

أضف إلى ذلك أن الكتاب يعج بكثير من الأخطاء الفاحشة، وليس فيه تخريج إلا للحديث والقرآن الكريم، ولا يظننّ ظان أن السيد المحقق يعلم الحديث أو غيره، بل هو يستخدم ما حمّل وشاع على الأقراص المغنطة (السيديهات) وهذه أولى آفات استخدام الحاسوب.

وفي أحيان قليلة تجده يخرج بعض أبيات الشعر، وبمراجعة أمرها وجدت أنه يسطو عليها سطواً من كتب المحققين السابقين بالنص وإليك هذا المثال:

علق السيد المحقق على بيت جرير الذي يقول فيه: – من الوافر –

إذا بدت الخيام بذى طلوح سُقيت الغيث أيتها الغمام

قائلاً في الحاشية رقم ١ ص١٢٧" البيت من بحر الوافر وقد أورده صاحب تحبير التحرير..والبيت في ديوانه ٩٨/٢ وبديع ابن معتز ١٠٧ والعمدة ٣٨/٢ ونهاية الأرب ١١٦/٧"

وهذا التخريج مسروق بنصه وترتيب مراجعه من حاشية ٢ص١٤٢ من تعليق الدكتور حفني محمد شرف رحمه الله على تحقيقه لكتاب ابن أبي الإصبع المصري / تحرير التحبير.

والكتاب بعد كل هذا خال من أي أنواع الفهارس الفنية، ولم يبق أي مخطوطات استخدمها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.